نظريات اكتساب اللغة

كما رأينا يتعلم الطفل الأصوات ونظامها في لغته الأم مع دخوله المدرسة (الفونولوجيا)، وعليه أن يفهم الكلمات ويستخدمها (الدلالة)، وهذا يدفعه إلى مراقبة علاقات الكلمات ببعضها وترتيبها وما يحكم ذلك في قواعد (النحو). ولكن هذا لا يكفي، فهناك مهارات عديدة لا بد من اكتسابها، ومنها تعلمّ كيفية التعبير عن مقاصده، وأخذ خلفية المستمع ومعارفه بعين الاعتبار، واستخدام التنغيم وطبقة الصوت وفهم الفرق بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي (الاستخدام الاجتماعي للغة البراغماتية).

نظريات اكتساب اللغة

هناك ثلاث نظريات رئيسة: نظرية التعلم التي تؤكد على دور التعزيز والمحاكاة، والنظرية الفطرية التي تنظر إلى اللغة باعتبارها قدرة فطرية والنظرية التفاعلية والتي ترى أن اللغة قدرة فطرية تتطّور من خلال التفاعل الاجتماعي.

1. **نظرية التعلم Learning Theory**

لخص سكنر (1957) نظريته حول اكتساب اللغة في كتابه **السلوك اللفظي** (الشفوي) Verbal Behavior. ورأى أن اللغة، شأنها في ذلك شأن أي سلوك آخر، تكتسب عبر عملية الإشراط الإجرائي. فعندما يقوم الطفل بإخراج تصويتات يتم تعزيزة (الابتسام له، رفعه إلى الأعلى، الخ)، مما يشجعه على إعادة السلوك. ويرى سكنر أنَّ الانتقال من المناغاة إلى الكلمات الأولى تتم عبر عملية التشكيل Shaping حيث: يقوم الآباء بتعزيز الأطفال عندما ينتجون تصويتات تقترب من الكلمات الحقيقية. وفي مرحلة إنتاج الجمل، يجري تعزيز الأطفال عندما ينتجون جملاً صحيحة (سليمة نحوياً).

وهناك **نظرية التعلم الاجتماعي لباندورا (Bandura)**

تؤكد نظرية ألبرت باندورا على التعلم من خلال الملاحظة والمحاكاة. وترى أنّ الأطفال يكتسبون الكلمات والجمل من خلال الاستماع إلى الآخرين ومحاكاة سلوكاتهم.

يمكن القبول بأنّ للتعزيز دوراً في تشجيع الأطفال على إنتاج الكلام وهناك دور للتقليد في اكتساب اللغة، فالأطفال يكتسبون اللغة واللهجة التي يتعرضون لها، ويمكن للمحاكاة مساعدة الأطفال في اكتساب بعض الكلمات والعبارات مثل شكراً، عفواً، صباح الخير، كيف حالك، الله يسلمك، الحمدلله، إلخ.

ولكن نظرية التعلم بشكل عام لاتقدم تفسيراً وافياً لاكتساب اللغة، وتعرضت للنقد من كثير من الباحثين.

لا يمكن للتعزيز وحده تفسير السرعة التي يكتسب بها الأطفال اللغة. فلو كان الاكتساب يعتمد في الأساس على التعزيز، لكانت هناك حاجة لتعزيز عدد هائل وغير محدد من التفوّهات والكلمات والعبارات.

وحتى عندما يتلقى الطفل تعزيزاً لإنتاجه تفوّها ما بشكل صحيح، فإنّه لا يتلقى تغذية راجعة مباشرة حول الجزء الصحيح من الذي جرى تعزيزه من كامل التفوّه، ويشار إلى هذه المشكلة بضعف المثير Poverty of the Stimulus.

عندما يتم تعزيز الأطفال فغالبا ما يتم لإنتاجهم كلامّاً صحيحاً وليس بالضرورة لإنتاجهم كلاماً سليماً نحويا، كأن يقول "ماما هادا حصان" وهو يشير إلى الحصان أو "هادا كلب" وهو يشير إلى الخاروف فيتلقى تعزيزاً سالباً.
وهناك حالات وأمثلة، جرى فيها تصحيح الأطفال (تغذية راجعة) لإنتاجهم عبارات أو كلمات غير سليمة نحوياً أو صرفياً، ولم يفد الأطفال من ذلك:

الأب: كيف بسكليتك؟
الطفل: خربان .. مش كويّس
الأب: خلص.. بنصلحلك إيّاه
الطفل: خذو ع الصلاّح
الأب: ماشي.. رح أوخذوا ع المصلحّ
الطفل: خذني معك ع الصلاّح

وأخيراً ينتج الأطفال اللغة معتمدين على إبداعاتهم وتحليلهم الخاص للمدخلات اللغوية، فيظهر عندهم التعميم الزائد كما في المثال أعلاه، وهذا الإنتاج قطعاً ليس محاكاة لكلمات وعبارات سمعوها من الكبار.

2. النظرية الفطرية Nativist Theory

ذهب ناعوم تشومسكي (1965،1957) مذهباً مخالفاً لسكنر، وقال إنّ اكتساب اللغة مهمّة في غاية التعقيد ولذلك لا بدّ أن يكون الدماغ مزوداً بآلية خاصة للتعامل مع اللغة، تسمى جهاز آلية اكتساب اللغة language acquisition device . وهذه الآلية عبارة عن بنية فطرية تشتمل على قواعد عامّة universal grammar وهي سمات تشترك فيها جميع اللغات (مثل مفاهيم الفاعل والمفعول والفعل). ولا يقوم أحد بتعليم الأطفال القواعد، بل إنّ آلية الاكتساب تتيح للطفل استخلاص قواعد لغته من خلال الاستماع إلى الكلمات والجمل. ويتم هذا عبر عملية تسمى إعداد المعايير parameter setting. وعندما يكتشف الجهاز قاعدة أو معياراً مثل الترتيب الأساسي لمكونات الجملة مثل فعل فاعل مفعول به يقوم بتثبيت هذه القاعدة ويستخدمها الطفل لاحقاً لفهم وإنتاج الكلام.
ومما يدعم نظرية تشومسكي وجود مسار ثابت لاكتساب اللغة عند جميع الأطفال بغضّ النظر عن لغتهم الأم: المناغاة، الكلمة- الجملة، الجملة المختصرة وصولاً إلى اكتساب معظم القواعد اللغوية في سن المدرسة.
وذهبت النظرية الفطرية إلى أنّ هناك فترة محددة لاكتساب اللغة (نظرية الفترة الحرجة) يكون فيها الدماغ جاهزاً ومستعداً للتعامل مع البيانات اللغوية. ويظهر هذا في الحالات البشرية التي وجدت معزولة عن محيطها اللغوي إلى ما بعد سن البلوغ أو في حالات المهاجرين الذين يبدأون في تكلم لغة ثانية بعد مرحلة المراهقة، فنادراً ما يصلون إلى مرحلة إتقانها كما يتقنها الناطقون بها.
تعرضت نظرية تشومسكي للنقد وبخاصة الجوانب المتصلة بجهاز اكتساب اللغة والقواعد العامّة. صحيح أنّ هناك مناطق في الدماغ مسؤولة عن اللغة مثل بروكا وفيرنيكا، ولكن لم يتم اكتشاف مكان أو منطقة معينة تقابل جهاز الاكتساب الذي تحدث عنه تشومسكي. وما يزال علماء اللغة مختلفين حول طبيعة القواعد العامّة.

أما الحديث عن اكتساب اللغة بسرعة فبحاجة إلى إعادة نظر إذا أخذنا مجموع الساعات التي يقضيها الطفل بالاستماع إلى اللغة والتفاعل معها واستخدامها منذ الولادة وحتى نهاية الخامسة.

وحدثت تطورات على النسخة الأولى من النظرية الفطرية عبر النظريات الإدراكية cognitive theories التي طورّها بياجيه وسلوبن. وعارضت هذه النظريات وجود جهاز خاص باللغة منذ الولادة، وركزّت في المقابل على وجود قدرات إدراكية ومعرفية فطرية عند الطفل. وأكدّ بياجيه (1967) أن التطور اللغوي مرتبط بتطور القدرات الإدراكية عند الطفل.وقال بانّ اللغة لا تظهر إلاّ بعد المرحلة الحسحركية، ولا يبدأ اكتساب اللغة اللغة إلاّ بعد ظهور بعض القدرات الإدراكية مثل دوام الأشياء object permanence. أما سلوبن فذهب إلى أن جميع الأطفال يمتلكون عدداً من الاستراتيجيات الإدراكية تسمى المبادئ العاملة operating principles وأنهم يطبقون هذه الاستراتيجيات أثناء اكتساب اللغة. ومن هذه الاستراتيجيات: انتبه الى ترتيب الكلمات في الجملة وانتبه الى نهاية الكلمات. ويتيح تطبيق الأطفال لهذه الاستراتيجيات تدريجياً لتحليل الكلام الذي يسمعونه اكتساب اللغة. ولا شك أن التطورات الإدراكية العامة مثل تحسن قدرة الذاكرة، والتصنيف وغيرها تقوم بدور مهم في تسهيل اكتساب اللغة. ولكن لو كان اكتساب اللغة يعتمد بشكل أساسي على التطور الإدراكي للاحظنا فروقاً ذات بال في الاكتساب تبعاً لتفاوت القدرات الإدراكية عند الأطفال ولكن الأمر ليس دائماً كذلك.

3. النظريات التفاعلية Interactionist veiws

تقبل هذه النظريات أنّ هناك مكوّنا فطريا للغة ولكنها تؤكد على دور الدعم الاجتماعي الذي يقدمه الكبار للأطفال. وذهب برونر Jerome Bruner إلى أنّ الآباء يوفرون لأطفالهم نظام دعم اجتماعي لاكتساب اللغة Language acquisition support system (LASS).

ويتألف هذا النظام من عدد من الاستراتيجيات التي تسهل اكتساب الأطفال للغة. ومن هذه الاستراتيجيات استخدام اللغة الطفولية baby talk، فقد أظهرت الدراسات تفضيل الأطفال الصغار لهذا النوع من الخطاب. ويرى برونر أنّ هذا النوع من الكلام يساعد على جلب انتباه الطفل وفهمه للغة. ومن الاستراتيجيات الأخرى "التوسيع" expansion لما يقوله الطفل. فإن قال "ماما أوكل" تقول الأم "صح ماما توكل حمّص" مثلاً. وبهذا تكون قد وسّعت جملة الطفل وطوّلتها وجعلتّها جملة اكثر تعقيداً مع المحافظة على بنية لغوية سليمة نحوياً. وهكذا يملأ الآباء الفراغات اللغوية ويوفرون معلومات نحوية يمكن أن تساعد في اكتساب اللغة.

تقدم هذه النظريات التفاعلية موجّهات مفيدة للآباء حول كيفية المساعدة في تطور اللغة، ولكن لهذه النظريات مشاكلها أيضاً. فقد تبين أنّ الممارسات اللغوية للآباء تتفاوت عبر الثقافات. فاللغة الطفولية مثلاً لا تستخدم عند جميع الثقافات (Pinker 2007) ومع ذلك يكتسب الأطفال اللغة بالطريقة والسرعة ذاتّها، وبالتالي لا يمكن أن يعتمد اكتساب اللغة بشكل رئيسي على التفاعل الاجتماعي.

الإعاقات اللغوية واكتساب اللغة

متلازمة داون

فأطفال متلازمة داون يعانون من صعوبات اكتساب اللغة، ومن ذلك وجود تأخر لغوي قياساً بعمرهم الزمني ولكن التأخر متوافق مع عمرهم العقلي. وبعد سن الرابعة تبدأ اللغة في التأخر عن العمر العقلي وتظهر مشاكل في المفردات والنحو. ولكن هناك تباينات فردية أيضاً. وجاء في دراسة لياماداYamada نشرت عام 1990 أنّ القدرات اللغوية للورا Laura تجاوزت قدراتها الإدراكية الأخرى.

وهناك أطفال متلازم وليام William الذين يتراوح معامل ذكائهم حول 50. فالبرغم من الصعوبات والإعاقة الذهنية الشديدة إلاّ انهم قادرون على إنتاج الكلام بطلاقة وبسلامة نحوية، بالإضافة إلى قدرتهم على اكتساب المفردات.
أما أطفال التوحد فيعانون من صعوبات في الجوانب الراجماتيه للغة.
ومع أنّ الشواهد ما تزال ملتبسة الاّ أنّ المتوفر منها يشير إلى إمكانية حدوث تطور لغوي ملفت مع وجود إعاقات/مشاكل إدراكية كبيرة.

مشاكل لغوية خاصّة أو محددة Specific Language Impairment

هناك أطفال يعانون من صعوبات/ مشاكل لغوية خاصة/محددة أثناء تطورهم اللغوي. ويكون هذا عندما يكون مستوى التطور اللغوي مختلفاً عن جوانب التطور/ النمو الأخرى، وأن لا يكون مرتبطاً بمدى أوسع من الصعوبات التعليمية، أو فقدان السمع، أو المشاكل العصبية اللغوية أو فقر/ضعف البيئة اللغوية. وبشكل عام يكون معامل الذكاء لهولاء الأطفال طبيعياً. وتكون المشكلة خاصة باللغة. ويقدر حجم هذه المشاكل بـ 7% من الأطفال. ويبدو أن هناك جانبا وراثياً لهذه المشكلة.

ويعاني القسم الأكبر من هؤلاء الأطفال من مشاكل فونولوجية ونحوية. وتتفاوت طبيعة هذه الصعوبات من لغة لأخرى. فالأطفال الناطقون بالإنجليزية يعانون من صعوبة في المورفيمات الصرفيه (صيغة الفعل ed) بينما يعاني الناطقون بالإسبانية والإيطالية من صعوبات في الأدوات والكلمات الوظيفية.
ذهب بعض الدارسين إلى أنّ المشكلة تعود إلى خلل جيني في جهاز الاكتساب. ولكن معظم الباحثين يرون أنّ المشكلة تعود إلى خلل في الذاكرة القصيرة الشفوية وفي معالجة الجوانب الفونولوجية. فهؤلاء الأطفال لهم ذاكرة قصيرة ضعيفة مما يؤثر على اكتسابهم للمفردات. ويمكن للصعوبات التي تواجههم في التعامل مع النظام الصوتي أن تؤثر على اكتساب النحو، ومن ذلك اكتساب صيغ الماضي (لفظ مورفيمات صيغ الماضي بالإنجليزية)